أبرزُ سماتِ المدرسةِ الحديثيةِ العراقيةِ في القرونِ الثلاثةِ الأولى

الباحث

د. علاء كامل عبد الرزاق

تدريسي في قسم الحديث

كلية العلوم الاسلامية – جامعة الانبار

alaa.kamil@uoanbar.ude.iq

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، أما بعد.

فإنَّ الاشتغالَ بعلومِ الحديثِ فضيلةٌ عظيمةٌ، ومنزلةٌ كبيرةٌ، لأنَّ الباحثَ يتناولُ في طياتِ بحثِهِ أنوارَ النبوةِ والأحاديثَ النبوية العطرةِ، ويستلهمُ منها الدروسَ والعبر، ولعل من أهمِّ ما يشتغلُ به المرءُ في فنونِ الحديثِ هو النظرةَ إلى ما قام به أئمةُ الحديث من أصحابِ القرونِ المفضلةِ الأولى، وهم أصحابُ الروايةِ، ومحاولة دراسةِ بعض المميزات والسماتِ التي وضعوها للناسِ من بعدِهم، وكيف أنهم أوصلوا لنا المحجةَ البيضاءِ ليلها كنهارِها، محذرينَ في نفسِ الوقتِ من الرواياتِ المكذوبةِ المختلقةِ على رسولنا ﷺ، وهذا مما لا شكَّ فيهِ أمرٌ ضروريٌّ للباحثِ ولطالبِ العلمِ في إبرازِ أهم صفاتِ ذلكم الجيل.

وإنني إذ أدرسُ هذه الحقبةَ لا بد للباحثِ من أن يقفَ على أبرزِ سماتِ المدرسةِ الحديثيةِ العراقيةِ، وأعني بها مدرسةُ البصرةِ والكوفةِ وبغدادَ وواسطَ، إذ أنَّ لها دوراً مهماً في علومِ الحديثِ وفنونِه – روايةً ودرايةً –، وإنَّ أئمَّتَها قد وضعوا أُسساً للعلماءِ من بعدِهِم، أخذوا منهم وحملوا عنهم وتأثروا بهم، فكانوا مناراً في نشر السنةِ النبويةِ، وقدوةً في رسمِ منهجِ النقد في قبولِ الروايةِ وردِّها، فجزاهم الله عنا كل خيرٍ.

ولو أردتُ أن أستعرضَ سمات المدرسةِ الحديثيةِ العراقيةِ بشكلٍ مفصَّلٍ لطالَ بي المقام ولاتسعَ الكلامُ، وحسبي من القلادةِ ما طوَّقتِ العُنُقَ، ولأضعَ بينَ يدَي أساتذتي الأفاضلَ النِقاطَ على الحروفِ، فكانت أبرزُ السِّماتِ وأهمِّها فقط دون الولوجِ في مضامينها وتفاصيلها.

واقتصرتُ على القرونِ الثلاثةِ الأولى لأهميتها، وهي عصرُ الرِّوايةِ، والتي تعتبرُ أساساً لما بعدَها في التأصيلِ ووضعِ القواعد الحديثيةِ لعلومِ الدِّرايةِ أيضاً.

لهذا كلِّه اتجهت همة الباحثِ في أن يختارَ جزءاً يسيراً لما قاموا به، وإبرازاً لدورهم العظيمِ في خدمة السنةِ وعلومها، فكان عنوانُ البحثِ (أبرزُ سماتِ المدرسةِ الحديثيةِ العراقيةِ في القرونِ الثلاثةِ الأولى) وإني سأذكر فيه أبرزَ السِّمات التي انتهجها الأئمةُ في العناية بالحديث النبويِّ، واللهَ أسألُ أن يكونَ عملي خالصاً لوجههِ الكريمِ، وأن يجعلَ له القبولُ في الأرضِ.

ومن البديهيِّ في الدراسةِ الأكاديميةِ أنَّه لا بد للبحثِ من خطةٍ علميةٍ، فكانت المقدمةُ التي بين يدي القارئ الكريم، ثم مبحثان:

المبحثُ الأولُ: سماتُ المدرسةِ في العناية بعلم الرِّواية، وفيه:

المطلبُ الأولُ: الحرصُ على جمعِ الحديثِ.

المطلبُ الثاني: كثرةُ الشُّيوخ والتلاميذِ.

المطلبُ الثالثُ: التَّصنيفُ والتَّأليفُ.

المبحثُ الثاني: سماتُ المدرسةِ في العناية بعلمِ الدِّرايةِ، وفيه:

المطلبُ الأولُ: التَّحققُ والتَّثبتُ في الرِّوايةِ.

المطلبُ الثاني: الضبطُ في التَّلقي والأداءِ.

ثم بعد ذلك كانت الخاتمةُ وأبرزُ النتائجَ التي توصل إليها الباحث.

وختاماً أسألُ اللهَ تعالى أن يتقبل مني عملي هذا، وأن يجعلَه خالصاً لوجهه الكريم، وأن يعيذَني من الزيغِ والزللِ، ويجنِّبني الفُحش في القولِ والعملِ، وأن يباركَ للقائمين على هذا المؤتمرِ، وعلى رأسِهم أصحابَ المدرسةِ الحديثيةِ العراقيةِ المعاصرةِ.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباحث

المبحث الأول

سماتُ المدرسةِ في العناية بعلم الرِّواية

تمهيد:

إن العناية بالحديثِ والاهتمامَ بهِ نشأ قديماً، منذ عصرِ الصحابةِ ﷺ، فقد اهتموا بنشرِهِ وصيانتهِ من التحريفِ، والتحري والتثبت في الروايةِ عن رسول الله ﷺ كان دَيدَنُهم، " ولا غرابةَ في ذلك فهم صفوةُ الخلقِ بعد الأنبياءِ والرسلِ وقد اختارهم الله ﷻ لصحبةِ خير الخلقِ محمد رسول الله ﷺ وزكاهم الله ورسوله، وأجمعت الأمة على أفضليتهم وخيريتهم... والصحابةُ هم نقلةُ الدين عن رسول الله ﷺ وهم صلةُ الأمةِ برسولِها، وكانوا أمناء في التحمل والأداء عن رسول الله ﷺ، ولا طريق للأمة لمعرفة ما جاء به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق إلا هم "[١].

وقد كان لهم دورٌ بارزٌ في إنشاء مدرسةِ الحديثِ في العراقِ، متمثلةً بمدرسَتَي البصرةِ والكوفةِ، ويتَّضح ذلك جلياً في أنَّ عددَهم تجاوزَ المائةَ صحابيٍّ قد استوطنوا العراق، ففي البصرةِ بلغ عددُهم خمسين صحابياً، في حين بلغ عددُ الصحابةِ في الكوفةِ خمساً وخمسين كما ذكر ذلك ابن حبانَ[٢]. وهؤلاءِ من مشاهيرِ الصحابةِ، وما عدا المشاهيرِ فهم كثيرٌ، وقد أحصى ابنُ سعدٍ أنَّ مَن نزلَ البصرةَ لوحدها من الصحابةِ بلغ نحو خمسين ومائةَ صحابيٍّ[٣]، وأما الكوفةُ فقد قالَ العجليُّ: " نزلَ الكوفةَ ألفٌ وخمسمائةَ من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ "[٤]. وهذا له دور كبيرٌ في إثراءِ المدرسةِ الحديثية العراقيةِ بحديثِ رسولِ الله ﷺ وسننِهِ القوليةِ والفعليةِ، في القرنِ الأولِ.

وأخذ منهم التابعون ورَوَوا عنهم وساروا على طريقتهم رحمهم الله تعالى، فكانوا خيرَ خلفٍ لخيرِ سلف، فجمعوا حديثَ رسولِ الله ﷺ ودوَّنوهُ، وكانت عنايتُهم بعلمِ الرِّوايةِ عظيماً، متمثلةً بكثرةِ الرحلاتِ إلى الأمصارِ، إذ لم يكتفوا بالأخذِ عن مَن سكن البصرة والكوفةَ من الصحابةِ، وكذا اتسمت بكثرةِ الروايةِ وجمعِ الأسانيدِ فأصبحوا أوعيةً للعلمِ، ودارت عليهمُ الأسانيد، ثم صنفوا الحديثَ ودَوَّنوهُ فحازوا السبقِ في ذلك.

---

(١) علم الرجال نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع: لأبي ياسر محمد بن مطر بن عثمان آل مطر الزهراني (ت ١٤٢٧هـ) دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ص ٣٥٧.

(٢) مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار: لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبي حاتم الدارمي البُستي (ت ٣٥٤هـ) حققه ووثقه وعلق عليه: مرزوق على ابراهيم. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – المنصورة. الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م ص ٦٥ – ٨٣.

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى: لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري البغدادي المعروف بابن سعد (ت٢٣٠هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ٧ / ٣-٦٢.

(٤) تاريخ الثقات: لأبي الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي (ت٢٦١هـ). دار الباز. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م ص ٥١٧.

المطلب الأول

الحرص على جمعِ الحديثِ

لا يمكنُ جمعُ الحديثِ إلا بتوفرِ أمرين أساسيين: الرحلةُ في طلبِهِ، والإكثارُ منهُ؛ لهذا تناولت في هذا المطلبِ هذين الأمرينِ بشكلٍ موجزٍ لبيانِ أهم ما اتسمت به المدرسة الحديثية العراقية.

أولاً: التأكيدُ على الرِّحلةِ في طلبِ الحديثِ والاهتمامِ بها:

إنَّ الرحلةَ في طلبِ العلمِ والحديثِ لها أهميةٌ عظيمةٌ لدى الأئمةِ قديماً وحديثاً، بل جعلوها من الدِّين، ففيها طلب علوِّ الإسنادِ، ومخالطةِ الكبارِ من العلماءِ، ولقاءِ الأئمةِ من مختلف الأمصارِ والبلدان للأخذ منهم؛ ولقد رسم لنا أئمةُ المدرسةِ العراقيةِ قواعدَ عظيمةً في ذلك، وأصَّلوا أصولاً كانت نبراساً لمن بعدهم، فها هو حمادُ بنُ زيدٍ البصريُّ (ت١٧٩هـ) بعد ما سئل: " يا أبا إسماعيلَ، هل ذكَرَ اللَّهُ تعالى أصحابَ الحديثِ في القرآنِ؟ فقالَ: نعم، ألَمَ تَسمع إلى قولِهِ ﷻ: " فَلَولا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ "[(١)]، فهذا في كلِّ مَنْ رحلَ في طلبِ العلمِ والفِقهِ، ورَجعَ به إلى مَنْ وَرَاءهَ فَعلَّمَه إيَّاهُ "[(٢)].

وعندما سئلَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل البغداديُّ (ت٢٤١ هـ) عمَّن طلبَ العِلمَ تَرى لَهُ أنْ يَلزَمَ رَجلًا عندَهُ علمٌ، فيكتُبُ عنه أو ترى أن يَرحلَ إلى المواضعِ الَّتي فيها العِلمُ فَيسمعُ منهم؟ قال: " يَرحلُ يكتبُ عنِ الكوفِيّينَ والبصريينَ، وأهلِ المدينةِ ومكَّةَ يُشامُّ النَّاسَ يَسمعُ منهم "[(٣)].

إنَّ هذه الأصولَ والقواعدَ والتي تعدُّ من أبرزِ سماتِ مدرسةِ الحديثِ العراقيةِ جعلت العلماءَ يبحون عن الإسنادِ العالي، ويرحلون إلى الأمصار لأجل السماعِ والتلقي من الكبارِ، فحفظ الله بهم الدينَ، وأخذوه كابراً عن كابرٍ، ما إن سمعوا عالماً في بلدٍ من البلدان تبلغه أعناقُ الإبلِ إلا وطاروا إليه، فطافوا البلاد شرقاً وغرباً، فجزاهم الله عنا وعن الإسلامِ كل خيرٍ.

ولعلَّ الصحابةُ ﷺ أولَ من سنَّ الرحلةَ، فتركوا الدِّيارَ لنشرِ حديثِ رسولِ الله ﷺ في الأمصارِ، وكان نصيبُ العراقَينِ (البصرةِ والكوفة) منهم كبيراً، فشهدَ القرنُ الأولُ رحلةَ الصحابةِ رضوانُ الله عليهم وتأسيسَ مدارسِ العلمِ

---

(١) سورة التوبة: ١٢٢.

(٢) الرحلة في طلب الحديث: لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) تحقيق: نور الدين عتر. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ ص ٨٦.

(٣) المصدر السابق: ص ٨٨.

والحديثِ في البصرةِ والكوفةِ، وكان آخرُ من ماتَ منهم في البصرةِ سيدُنا أنسُ بنُ مالكِ الأنصاريُّ ﷺ خادمُ رسولِ الله ﷺ (ت٩٣هـ)[١].

ثمَّ جاءَ عصرُ التابعينَ رحمهم الله تعالى فكانوا خيرَ خلفٍ لخيرِ سلفٍ، قالَ ابنُ أبي حاتمٍ الرازيُّ (ت٣٢٧هـ): " فخلف بعدهم – أي بعد الصحابةِ – التابعون الذين اختارَهم الله ﷻ لإقامةِ دينِهِ وخصَّهُم بحفظِ فرائضِهِ وحدودِهِ وأمرِهِ ونهيِهِ وأحكامِهِ وسننِ رسولِهِ ﷺ وآثارِهِ، فحفظوا عن صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ ما نشرُوه وبثُّوه من الأحكامِ والسننِ والآثارِ وسائرِ ما وصفنا الصحابةَ به رضيَ اللهُ تعالى عنهم فأتقنوهُ وعلموهُ وفقهوا فيه، فكانوا من الإسلامِ والدينِ ومراعاةِ أمرِ اللهِ ﷻ ونهيه بحيث وضعهم الله ﷻ ونصبهم له، إذ يقول الله ﷻ: " والذينَ اتَّبعوهم بإحسانٍ رضيَ اللهُ عنهُم ورضُوا عنهُ "[٢] الآية، ..... عن قتادة: قوله ﷻ " والذين اتبعوهم بإحسان": التابعين، فصاروا برضوان الله ﷻ لهم وجميل ما أثنى عليهم بالمنزلة التي نزههم الله بها عن أن يلحقهم مغمز أو تدركهم وصمة لتيقظهم وتحرزهم وتثبتهم، ولأنهم البررة الأتقياء الذين ندبهم الله ﷻ لإثباتِ دينه وإقامةِ سنته وسبلِهِ، فلم يكن لاشتغالنا بالتمييز بينهم معنى، إذ كنا لا نجد منهم إلا إماماً مبرزاً مقدماً في الفضل والعلم ووعي السنن وإثباتها ولزوم الطريقة واحتبائها، رحمةُ اللهِ ومغفرتُهُ عليهم أجمعين "[٣].

فرحلَ الكثيرُ من التابعينَ إلى الأمصار لملاقاةِ الصحابةِ والأخذِ عنهم، فاستوطنوا الديارَ والبلدانَ وتركوا الأهلَ والخِلَّان، فقَدِمَ الكثيرُ منهم أرض السَّوادِ (العراق) ورَوَوا منهم وعنهم، كالحسنِ البصريّ (ت١١٠هـ)، ومسلمُ بنُ يسارٍ البصريُّ ثم المكيُّ (ت١٠٠هـ)، وأمثالهم، وقد ذكر محمدُ بنُ سعدٍ في طبقاته عدداً كبيراً منهم فجزاهم الله خيراً[٤].

ثم جاءَ عصرُ أتباعِ التابعينَ، وبرزتِ الرِّحلةُ في طلبِ الحديثِ عندَ الأئمة، بل كان يُذكرُ لمن طلبَ الحديثَ ورحلَ فضلُه ومنزلتُه ومكانتُه بين العلماء والمحدثين، وهذا ما ميَّز حديثُ ابنِ المبارك عن غيره من أقرانِهِ، قال أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمهُ اللَّهُ : " لَم يكُن في زمانِ ابنِ المبارَكِ أطلبَ للعلمِ منهُ، رَحلَ إلى اليمنِ وإلى مِصرَ وإلى الشَّامِ والبصرةِ

---

(١) الطبقات الكبرى: لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري البغدادي المعروف بابن سعد (ت٢٣٠هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ١٩/٧.

(٢) سورة التوبة: ١٠٠.

(٣) الجرح والتعديل: لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن – الهند / دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة الأولى ١٢٧١هـ - ١٩٥٢م ٨/١.

(٤) ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٧/ ٦٣ وما بعدها.

والكوفةِ، وكانَ من رواةِ العلمِ وأهلِ ذلكَ، كتبَ عنِ الصِّغارِ والكبارِ، كتبَ عن عبدِ الرَّحمنِ بنِ المهدِيِّ وعنِ الفزَارِيِّ، وجَمعَ أمرًا عظيمًا "[١].

ولنا وقفة في قولِ أحمدَ رحمه الله تعالى، وهي فضلُ رحلةِ عبدِ الله بن المباركِ في جمع العلمِ، وفضلُ من رحلَ إليهم، فسمَّى عَلَمَينِ من أعلامِ المدرسةِ الحديثِ العراقيةِ، وهما عبدُالرحمنِ بنُ مهديٍّ البصريُّ (ت١٩٨هـ)، وإبراهيمُ بنُ محمدٍ الفزاريُّ الكوفيُّ أبو إسحاق (ت١٨٨هـ على الراجح في وفاته).

وكان من سماتِ أهل هذهِ المدرسةِ أنَّهم كانوا يضَعِّفون أمرَ مَن لم يرحلْ لطلبِ العلمِ، قالَ يحيى بنُ معينٍ البغداديُّ (ت٢٣٣هـ): " أربعةٌ لا تُؤنِسُ منهُم رشدًا: حارسُ الدَّربِ، ومنادي القاضي، وابنُ المحَدِّثِ، ورجُلٌ يكتُبُ في بلدِهِ ولا يَرحَلُ في طَلَبِ الحديثِ "[٢].

فكانت الرحلة إلى مدارسِ العراقِ الحديثية (كالبصرةِ والكوفة وبغداد وواسط) مطلوباً عزيزاً، وما رحلة الإمامِ البخاريِّ (ت٢٥٦هـ) إلى العراقِ إلا لهذا الغرض، فأخذ العلمَ من أكابرهم، وكتب عنهم، قالَ الخطيب في ترجمة البخاريِّ: " رحلَ في طلبِ العلمِ إلى سائرِ محدثي الأمصارِ، وكتبَ بخراسانَ، والجبالَ ومدنَ العراقِ كلِّها، وبالحجازِ والشامِ ومصرَ "[٣]. وقال البخاريُّ (ت٢٥٦هـ): " دخلتُ بغدادَ آخرَ ثمانِ مراتٍ كلُّ ذلكَ أجالسُ أحمدَ بنِ حنبلٍ "[٤]. وقالَ أيضاً: " لقيتُ أكثرَ من ألفِ رجلٍ من أهلِ العلمِ أهلِ الحجازِ ومكةَ والمدينةَ والكوفةَ والبصرةَ وواسطَ وبغدادَ والشامِ ومصرَ لقيتُهم كراتٍ قرناً بعدَ قرنٍ ثمَّ قرناً بعد قرنٍ، أدركتُهم وهم متوافرون أكثرَ من ستٍ وأربعين سنةٍ أهلَ الشامِ ومصرَ والجزيرةِ مرتين وبالبصرةِ أربعَ مراتٍ في سنينَ ذوي عددٍ وبالحجازِ ستة أعوامٍ، ولا أحصي كم دخلتُ الكوفةَ وبغدادَ "[٥].

فالرحلةُ في طلب الحديث من وإلى العراقِ ومُدنِهِ عزيزٌ، واستمر إلى قرونَ عدةٍ، كل ذلكَ يجالسون فيهِ أهل العلمِ ويكتبون عنهم.

---

(١) الرحلة للخطيب: ص ٩١.

(٢) معرفة علوم الحديث: لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت٤٠٥هـ) تحقيق: السيد معظم حسين. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ص ٩. والرحلة للخطيب: ص٨٩.

(٣) تاريخ بغداد: لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي – بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م ٣٢٢/٢ ترجمة رقم ٣٧٤.

(٤) المصدر نفسه: ٣٤٣/٢.

(٥) تاريخ دمشق: لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت٥٧١هـ) تحقيق: عمرو ابن غرامة العمروي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ٥٨/٥٢.

ثانياً: المكثرونَ في الروايةِ من العلماءِ:

لعلَّ من أعظمِ سماتِ مدرسةِ الحديثِ العراقيةِ، وأهمِّ خصائِصِها هو الاهتمام بالحفظِ والإتقانِ للحديثِ وكثرةِ الروايةِ، وهذا لا يأتي إلا بطولِ المذاكرةِ وكثرةِ الترحالِ، والإخلاصِ لله والصدقِ معه، فهؤلاءِ ممن دارتْ عليهمُ الروايةُ، وهم قليلون قياساً بحملةِ هذا العلمِ.

قالَ الحاكمُ النيسابوريُّ (ت٤٠٥هـ): " إنَّ الصَّحيحَ لا يُعرَفُ بروايتِهِ فقط، وإنَّما يُعرَفُ بالفَهمِ والحفظِ وكثرَةِ السَّماعِ، وليسَ لهذا النَّوعِ من العلمِ عونٌ أكثَرَ من مُذاكَرةِ أهلِ الفهمِ والمعرفةِ لِيظهرَ ما يَخفى من علَّةِ الحديثِ "[١].

فلو نظرنا مثلاً إلى طبقةِ الصحابةِ ﷺ وهم حملةُ الوحي والرسالةِ لمن بعدهم نجدُ أنَّ الحافظَ السيوطيَّ (ت٩١١هـ) أورد في طبقاتِ الحفاظ ثلاثاً وعشرين صحابياً فقط[٢].

فليس كل راوٍ يعد مكثراً، والناظر إلى من اشتهر بالحفظ وكثرة الرواية عند السيوطي يجد أن القرون الثلاثة الأولى لم يتجاوزوا السبعمائة وخمسين حافظاً، في العالم الإسلامي كله، كان نصيبُ أئمةِ المدرسةِ العراقيةِ أكثرَ من النصفِ والباقي من شتى الأمصارِ الإسلاميةِ[٣].

ذكرَ ابنُ أبي يعلى (ت٥٢٦هـ) في طبقاتِ الحنابلةِ قولَ العباسِ بنِ محمدٍ الدُّوريّ البَغداديّ (ت٢٧١هـ) في جماعةٍ من الصحابةِ والتابعين وأتباعهم ممن اشتهروا بالعلم وكثرةِ الرواية فقال بعد ذكرِ الصحابةِ ﷺ: " وأما طبقاتُ خزَّانِ العلمِ: فالأعمشُ ومالكُ بنُ أنسٍ وعبدُ الرحمنِ بنُ عمرو الأوزاعيُّ والثوريُّ ومسعرُ بنُ كدام وشعبةُ.

وأما طبقاتُ الحفاظ فستة نفرٍ: أحمدُ بنُ محمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلي بن المديني وأبو زرعة الرازي ومحمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج "[٤].

فسليمانُ الأعمشُ (ت١٤٨هـ) وسفيانُ الثوريُّ (ت١٦١هـ) ومسعرُ بنُ كدام (ت١٥٥هـ) كوفيون، وشعبةُ بنُ الحجاجِ (ت١٦٠هـ) واسطيٌّ بصريٌّ، فهؤلاء من خُزانِ العلمِ وعليهم مدار الحديثِ، وكذا أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) ويحيى بن معين (ت٢٣٣هـ) بغداديّان، وعلي بن المديني (ت٢٣٤هـ) بصريٌّ، وهؤلاء حفاظ الدنيا وأوعية العلم.

---

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم: ص ٥٩-٦٠.

(٢) طبقات الحفاظ: لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ص ١٣ – ١٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٠ – ٣٢٨.

(٤) طبقات الحنابلة: لأبي الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (ت٥٢٦هـ) تحقيق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة – بيروت ٢٣٨/١.

ومن المكثرين في الرواية أبو إسحاق السبيعي الكوفي (ت١٢٧هـ)، قال عنه أبو حاتم الرازيُّ: " يُشبَّه بالزهريِّ في كثرةِ الروايةِ واتساعِه في الرِّجالِ "[١].

وكذا قتادةُ بنُ دعامةَ السدوسيُّ البصريُّ (ت١١٨هـ)، قال أبو داود الطيالسيُّ البصريُّ (ت٢٠٤هـ): " وجدنا الحديثَ عندَ أربعةٍ: الزُّهريِّ وقتادةَ والأعمشِ وأبي إسحاقَ. قالَ: وكانَ قتادةُ أعلَمَهُم بالاختلافِ، وكانَ الزُّهريُّ أعلَمَهُم بالإسنادِ، وكانَ أبو إسحاقَ أَعلَمَهُم بحديثِ عَلِيٍّ وعبدِاللَّهِ، وكانَ عندَ الأعمشِ من كُلِّ هذا "[٢].

وكذا أيوبُ بن كيسانَ السختيانيُّ البصريُّ (ت١٣١هـ)، قالَ ابن سعدٍ: " كانَ أيوبُ ثقةً ثبتًا في الحديث جامعًا عدلًا ورعًا كثيرَ العلمِ حجةً "[٣].

ومن قبلهم الحسنُ البصريُّ (ت١١٠هـ) وغيرهم الكثيرُ ممن رسموا أصولَ الحديثِ ومهدوا لأهلِ العراقِ – البصرة والكوفة – رسمَ الحديثِ، وكان عامةُ حديثهم حفظاً في صدورهم وقليلٌ منهم ذي كتابٍ.

ثم جاءَ العصرُ الذي بعدهم وانتقلت الخلافةُ الإسلاميةُ إلى بغدادَ بعدَ تأسيسِها في عهد الخليفةِ أبي جعفر المنصورِ رحمه الله قبلَ سنةِ (ت١٥٠هـ) فأصبحت محطَّ أنظارِ العلماءِ ومهبطَ الأئمةِ ومنزلَ الجهابذةِ من كلِّ فنٍّ وعلمٍ، وانتشر فيها مجالسُ التحديثِ والتأليفِ فيهِ، ليكونَ العراقُ قبلةَ العلماءِ من كافةِ الأمصارِ، فأخذ الناسُ الحديثَ من أهلِ العراقِ، وكذا العكسُ.

ومن أشهرِ المكثرينَ في هذه الطبقةِ خالدُ بنُ مهرانَ الحذَّاءُ البصريُّ (ت١٤١هـ)، وداودُ ابنُ أبي هند البصريُّ (ت١٤٠هـ)، وحجاجُ بنُ أرطاة الكوفيُّ القاضي (ت١٤٥هـ)، وعبدُ الله بنُ عون بنِ أرطبان البصريُّ (ت١٥٠هـ)، وهشامُ بنُ سنبرٍ الدَّستوائيُّ البصريُّ (ت١٥٤هـ)، وسعيدُ ابنُ أبي عَروبةَ البصريُّ (ت١٥٦هـ) وأمثالهُم، ممن كانوا أوعيةَ للعلمِ، وممن دارَ عليهمُ الإسنادُ.

ثمَّ أخذَ عنهم الجهابذةُ الذين سبقَ ذكرُ بعضهم آنفاً، ومنهم: حمادُ بنُ سلمةَ البصريُّ (ت١٦٧هـ)، وحمادُ بن زيدٍ البصريُّ (ت١٧٩هـ)، وعبدُ الله بنُ المبارك (ت١٨١هـ)، وبشرُ بنُ المفضل البصريُّ (ت١٨٦هـ)، وسفيانُ بنُ عيينةَ الكوفيُّ (ت١٩٨هـ)، ويحيى بن سعيد القطان البصري (ت١٩٨هـ)، وعبد الرحمن بن مهدي البصري (ت١٩٨هـ)، وغيرُهم الكثير ممن اشتهروا بالكثرةِ والاستفاضةِ والتثبتِ في الروايةِ.

---

(١) الجرح والتعديل: لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ) طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – بحيدر آباد الدكن – الهند. دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة الأولى ١٢٧١هـ – ١٩٥٢م ٦/٢٤٣.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) تحقيق: د. محمود الطحان. مكتبة المعارف – الرياض ٢/٢٩٣.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٧/١٨٣.

وهكذا في كل طبقةٍ يكثرُ عددُهم، وأضعُ بينَ يدي القارئ الكريمِ نصاً عظيماً لابنِ المدينيّ (ت٢٣٤هـ) حيث قالَ: " نظرتُ فإذا الإسنادُ يدُورُ على ستَّةٍ: فلأهلِ المدينةِ: ابنُ شهابٍ وهو محمَّدُ بنُ مسلِمٍ [الزهريُّ] ... ولأهلِ مكَّةَ: عمرو بنُ دينارٍ ... ولأهلِ البصرةِ: قتادةُ ابنُ دعامة السَّدوسيُّ ... ويحيى بنُ أبي كثيرٍ ... ولأهلِ الكوفةِ: أبو إسحاقَ [السَّبيعيُّ] ... وسليمانُ بنُ مِهرانَ [الأعمشُ] ...

ثمَّ صار علم هؤلاءِ السِّت إلى أصحابِ الأصنافِ ممَّن صنَّفَ: فلأهلِ المدينةِ: مالكُ ابنُ أنسٍ ... ومحمَّدُ بنُ إسحاقَ بنِ يسارٍ ... ومن أهلِ مكَّةَ: عبدُ الملكِ ابنُ عبدِ العزيز بنِ جُريجٍ ... وسفيانُ بنُ عُيينةَ ... ومن أهلِ البصرةِ: سعيدُ بنُ أبي عرُوبةَ ... وحمَّادُ بنُ سلمَةَ ... وأبو عَوانةَ واسمُهُ الوضَّاحُ ... وشعبةُ بنُ الحجَّاجِ ... ومعمرُ بنُ راشدٍ ... ومن أهلِ الكوفةِ: سفيانُ بنُ سعيدٍ الثَّوريُّ ... ومن أهلِ الشَّامِ: عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَمرٍو الأوزاعيُّ ... ومن أهلِ واسطٍ: هُشَيمُ بنُ بَشيرٍ ... ثمَّ انتهى عِلمُ هؤلاءِ الثَّلاثةِ من أهلِ البصرةِ وعلمُ الاثنَي عشرٍ إلى ستَّةٍ إلى: يحيى بنِ سعيدٍ القطَّانِ ... ويحيى بن زكريَّا بنِ أبي زائدةَ ... ووَكيعِ بنِ الجرَّاحِ ... إلى عبدِ اللَّهِ بنِ المباركِ ... وعبدِ الرَّحمنِ بنِ مهديٍّ ... ويحيى بنِ آدمَ ويكَنَّى أبا زَكريَّا"[1].

المطلب الثاني

كثرةُ الشُّيوخِ والتلاميذِ

لا تشتهرُ أيُّ مدرسةٍ إلا بعناصرَ ثلاثٍ: الشيخُ والتلميذُ والمنهجُ، وبما أن المنهجَ هو حديثُ رسول اللهِ ﷺ، والعنايةُ به-وقد خصصتُ له مطلباً-، كان لا بدَّ من شيوخٍ يروون وتلاميذَ يأخذونَ، وهكذا، حتى باتت تعرف بالسلسلةِ الحديثيةِ أو الإسنادِ، واهتم بها العلماءُ كثيراً، حتى سُميت أُمَّةُ الإسلامِ بأُمَّةِ الإسنادِ، فحفظَ اللهُ الدينَ والعلمَ بالإسنادِ، وكلما كثرت طرقُ الحديثِ واشتهر رواته بالحفظ والاتقانِ زادَ ذلكَ في تقويةِ الحديثِ والاحتجاجِ به، فكثرةُ الشيوخِ والتلاميذِ تقوي الحديثَ، وما شجرةُ الأسنادِ إلا لبيانِ حالِ الرواةِ ممن روى عن شيخِهِ، وأينَ مدارُ الحديثِ.

وقلما نجدُ سنداً معتبراً محتجاً بهِ إلا ولأئمةِ المدرسةِ العراقيةِ نصيبٌ، فبعدَ عصر الصحابةِ ﷺ وانتشارهم في الأمصارِ ازدادَ الآخذينَ عن الشيوخِ جيلاً بعدِ جيلٍ، وطبقةً تِلو طبقةٍ، حتى كَثُرت الأسانيدُ، والناظرُ إلى كتبِ الطبقاتِ ومعرفةِ الرجالِ يتبينُ له ذلكَ.

وسبقَ أن أشرتُ في موضوعِ المكثرين في الرِّوايةِ إلى كثرةِ الحَفَظةِ في العراقِ وخاصةً في القرونِ الثلاثةِ الأولى، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على أصالةِ هذه المدرسةِ وأهميتها بين المدارس الحديثيةِ في الأمصارِ كافةٍ، وعلى اهتمامِ أهلِها وأئمتِها بالحديثِ النَّبويِّ.

---

(١) العلل: لعلي بن عبد الله بن جعفر السعدي بالولاء المديني، البصري، أبي الحسن (ت٢٣٤هـ) تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي. المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٠م ص ٣٦-٤٠.

وعندَ النظرِ إلى من سماهم ابنُ سعدٍ في طبقاتهِ وترجم لهم، بدايةً من عصرِ الصحابةِ إلى زمانِهِ، أي أوائلَ القرنِ الثالثِ الهجري نجدُ أنَّ الكوفيينَ تجاوزوا الألفَ راوٍ، وأما أئمةُ البصرةِ فقد تجاوزوا الخمسمائةَ راوٍ، وبلغَ عددُهم في بغداد مائة وخمس وستونَ راوياً، وفي واسط ثلاثون، وغيرها من المدنِ، ناهيكَ عمن عاشَ بعدَ ابنِ سعدٍ ولم يذكرهم في طبقاتِهِ.

ومما يؤكدُ ذلكَ بل ويزيدُ قولَ محمدِ بنِ سيرينَ البصريّ (ت١١٠هـ): " قَدِمتُ الكوفةَ قبلَ الجَماجِمِ[١] فرَأيتُ فيها أربعةَ آلافٍ يطلُبونَ الحدِيثَ "[٢].

إنَّ هذا النصَّ من الإمامِ ابنِ سيرينَ يؤكدُ وبوضوحٍ وفرةَ الشيوخِ وكثرةَ الآخذين عنهم، في الكوفةِ والبصرةِ، ولما أُسِّست بغدادُ وصارت عاصمةَ الدنيا انتشر علماؤها ورواداها، وكانت الهجرةُ إليها، فانحسرَ عددُ الأئمةِ في الأمصارِ وكثروا في بغدادَ، ولهذا نجدُ أن عدَدهم كثرَ في بدايةِ القرنِ الثالثِ الهجريّ، ولهذا ذكرهمُ العلماءُ وأثنوا عليهم، فقالَ إسماعيلُ بنُ عُلَيَّة الكوفيُّ ثم البصريُّ (ت١٩٣هـ وتوفي ببغداد): " ما رأيتُ قوماً أحسنَ رغبةً ولا أعقلَ لطلبِ الحديثِ من أهلِ بغدادَ "[٣]، وكانوا يميزونهم عن غيرِهم في الطلب والتلقي والأخذِ عن الشيوخ، فقالَ سفيانُ ابنُ عيينةَ (ت١٩٨هـ): " شبابُ البغداديينَ، أحسنُ رغبةً من شبابِ البصريينَ والكوفيين "[٤].

وذكر الخطيبُ البغداديُّ في ترجمةِ الإمامِ البخاريّ رحمهُ الله روايةً عن صالحِ بنِ محمدِ جزرة البغداديّ قالَ: " كانَ محمدُ بنُ إسماعيلَ يجلسُ ببغدادَ وكنتُ أستملي لهُ، ويجتمعُ في مجلِسِه أكثرُ من عشرينَ ألفًا "[٥].

وقالَ الذهبيُّ: " وقالَ يوسفُ بنُ موسى المَرْوَرُوذِيُّ: كنتُ بجامعِ البصرةِ إذْ سمعتُ منادياً ينادي: يا أهلَ العلمِ، قد قَدِمَ محمدُ بنُ إسماعيلَ البُخاريُّ. فقاموا في طَلَبِهِ، وكنتُ فيهم، فرأيتُ رجلاً شابًّا يُصلّي خلفَ الأسطوانَةِ، فلمَّا فَرَغَ أحْدَقوا بِهِ، وسألوهُ أنْ يَعْقِدَ لهم مَجلِسَ الإملاءِ، فأجابَهُم. فَلمَّا كانَ من الغَدِ اجتَمَعَ كذا كذا ألفٍ، فَجَلَسَ

---

(١) قال أبو جعفر الطبري: " وفي هذه السنة –أي سنة اثنتين وثمانين– كانت وقعة دير الجماجم بين الحجاج وابن الأشعث في قول بعضهم، قال الواقدي: كانت وقعة دير الجماجم في شعبان من هذه السنة. وفي قول بعضهم كانت في سنة ثلاث وثمانين". ينظر: تاريخ الأمم والملوك: لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري (ت٣١٠هـ) دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ٦٢٩/٣.

(٢) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي: لأبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي (ت٣٦٠هـ) تحقيق: د. محمد عجاج الخطيب. دار الفكر – بيروت. الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ ص ٤٠٨.

(٣) تاريخ بغداد للخطيب: ٣٤٧/١.

(٤) المصدر نفسه: ٣٤٨/١.

(٥) المصدر نفسه: ٣٤٠/٢.

للإملاءِ، وقالَ: يا أهلَ البصرةِ أنا شابٌّ، وقد سألتموني أنْ أُحدِّثكم وسأحدِّثُكم بأحاديثَ عن أهلِ بلدِكم تستفيدونَ الكُلَّ ... "[1].

فكانت مجالسُ العلمِ تُعقدُ للأئمةِ ويحوطُهم الألافُ من التلاميذِ في البصرةِ والكوفةِ وبغدادَ وغيرِها.

المطلبُ الثَّالثُ

التصنيفُ والتأليفُ

يعتبرُ التصنيفُ والتأليفُ من أهمِّ سمات المدرسةِ الحديثيةِ، إنْ لم يكن أهمُّها، ولا تشتهرُ المدرسةُ إلا بكثرةِ تصانيفِها، ولقد كانَ للمدرسةِ العراقيةِ قصبُ السبقِ في ذلك، قالَ ابنُ حجرٍ العسقلانيُّ (ت٨٥٢هـ): " ثمَّ حدثَ في أواخِرِ عصرِ التَّابعينَ تدوينُ الآثارِ وتبويبُ الأخبارِ لما انتشَرَ العلماءُ في الأمصارِ، وكثرَ الابتداعُ من الخوارجِ والرَّوافضِ ومُنكري الاقدارِ، فأولُ مَن جمعَ ذلكَ: الرَّبيعُ بنُ صبيحٍ [البصريُّ (ت١٦٠هـ)] وسعيدُ بنُ أبي عَروبةَ [البصري (ت١٥٧هـ)] وغيرُهما.

وكانوا يُصنِّفونَ كلَّ بابٍ على حِدةٍ، إلى أن قامَ كبارُ أهلِ الطَّبقةِ الثَّالثةِ فدوَّنوا الأحكامَ، فصنَّفَ الإمامُ مالكٌ الموطَّأَ ... وصنَّفَ أبو محمَّدٍ عبدُ الملكِ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ جريجٍ بمكَّةَ، وأبو عمروٍ عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَمروٍ الأوزاعيُّ بالشَّامِ، وأبو عبدِ اللهِ سفيانُ بنُ سعيدٍ الثَّوْريُّ بالكوفةِ، وأبو سلمةَ حمَّادُ بنُ سلمَةَ بنِ دينارٍ بالبصرةِ.

ثمَّ تلاهم كثيرٌ من أهلِ عصرِهم في النَّسجِ على مِنوالِهِم إلى أن رأى بعضُ الأئمَّةِ منهم أن يُفردَ حديثُ النَّبيِّ ﷺ خاصَّةً، وذلكَ على رأسِ المِائَتَينِ فصنفَ عُبيدُ الله بنُ موسى العَبسيُّ الكوفيُّ [ت٢١٣هـ] مُسندًا، وصنفَ مُسَدّدُ بنُ مسرهدٍ البصريُّ[ت٢٢٨هـ] مُسندًا،... ثمَّ اقتفى الأئمَّةُ بعدَ ذلكَ أثرهُم فقلَّ إمامٌ من الحفَّاظِ إلا وصنَّفَ حديثَهُ على المسانيدِ كالإمامِ أحمدَ بنِ حَنبلٍ وإسحاقَ بنِ رَاهَوَيْه وعُثمانَ بنِ أبي شيبَةَ [الكوفي (ت٢٣٩هـ)] وغيرِهم من النبلاءِ، ومنهم مَن صنَّفَ على الأبوابِ وعلى المسانيدِ معًا كأبي بكرِ بنِ أبي شيبَةَ [الكوفي (ت٢٣٥هـ)] "[2].

وهذا كلامٌ نفيسٌ ودقيقٌ، حيثُ ذكرَ رحمهُ الله أوائلَ من صنَفَ في الحديثِ وفنونِهِ، والناظرُ إلى كلامِهِ يجدُ أنَّه قسَّمهم إلى طبقاتٍ زمنيَّةٍ، ولا تخلو طبقةٌ إلا ولعلماءِ المدرسةِ العراقيةِ نصيبٌ وافرٌ، فهم أوائلُ من صنَّفَ وجمعَ، والناسُ تبعٌ لهم.

---

(١) تاريخ الإسلام ووَفيات المشاهير والأعلام: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف. دار الغرب الإسلامي. الطبعة الأولى ٢٠٠٣م ١٤٥/٦.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي (ت٨٥٢هـ) رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي. قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب. عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز. دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩هـ ٦/١.

فبدايةُ التصنيفِ كانَ الحديثُ النبويُّ مصحوباً معه أقوالَ الصحابةِ ﷺ وفتاوى كبار التابعين رحمهم الله، ثمَّ أُفردَ الحديثُ على رأس المائتينِ، فظهرت المسانيدُ وهي إفرادُ أحاديثِ كلِّ صحابيٍّ على انفرادٍ، ثم اقتفى الحفاظُ آثارَ هؤلاءِ؛ قال أبو يعلى الخَليليُّ: " أوَّلُ مَن صَنَّفَ المسندَ على تَرتيبِ الصَّحابةِ بالبصرةِ أبو داود الطَّيالِسِيُّ [ت٢٠٤هـ]، وبالكوفةِ عُبيدُ اللَّهِ بنُ موسى [ت٢١٣هـ]، ثمَّ مَن صنَّفَ كان تَبعًا لهما "[(١)].

ثمَّ تنوَّع التصنيفُ والتأليفُ، وقلَّ نوعٌ من أنواعِ وفنونِ الحديثِ إلا ولأئمةِ هذه المدرسةِ الحظَّ الأوفرَ، فأعظمُ المسانيدِ حديثاً: مسندُ أحمدَ بنِ حنبلٍ، وأفضلُ كتابٍ في العللِ: كتاب العللِ لعليِّ بنِ المديني، وأوسعُ كتابٍ في الطبقاتِ: الطبقاتُ الكبرى لابنِ سعدٍ، وأشهرُ سؤالاتٍ في الجرحِ والتعديلِ ومعرفةِ الرجالِ ليحيى بنِ معينٍ، وهؤلاءِ هم أربابُ الصِّناعةِ الحديثيةِ، وجهابذةِ النقدِ الحديثِي، بل ولم يظهرْ صحيحُ الإمامِ البخاريِّ ويرى النورَ حتى عُرضَ على هؤلاءِ؛ قال أبو بكرٍ الإشبيليُّ: " قالَ مسلمةُ بنُ قاسم: سمعتُ مَن يقولُ عن أبي جَعفرٍ العقيليِّ، قالَ: لما ألَّف البخاريُّ كتابه في صحيحِ الحديثِ عَرَضه على عليِّ بنِ المدينيِّ ويحيى بنِ معِينٍ وأحمدَ بنِ حنبل وغيرِهم فامتحنوه ..... "[(٢)].

ولعلَّ الباحثَ يكتفي بذكرِ هذه الأسطرِ في بيانِ أبرزِ سمات المدرسةِ الحديثيةِ العراقيةِ وعنايتِهم بعلمِ الرِّوايةِ، في القرونِ الثلاثةِ الأولى، وهناكَ من السِّماتِ الكثيرَ لكن ذكرتُ أبرَزَها، وتركتُ غيرَها لحالِ الطولِ.

---

(١) الإرشاد في معرفة علماء الحديث: لأبي يعلى الخليلي، خليل بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن الخليل القزويني (ت٤٤٦هـ) تحقيق: د. محمد سعيد عمر إدريس. مكتبة الرشد – الرياض. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ٢/٥١٢-٥١٣.

(٢) فهرسة ابن خير الإشبيلي: لأبي بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة اللمتوني الأموي الإشبيلي (ت٥٧٥هـ) تحقيق: محمد فؤاد منصور. دار الكتب العلمية – بيروت/ لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٩هـ -١٩٩٨م ص ٨٣.

المبحثُ الثاني

سماتُ المدرسةِ في العنايةِ بعلمِ الدِّرايةِ

تمهيد:

علمُ الدرايةِ: علمٌ يُبحَثُ فيه عن سندِ الحديث ومتنه، من حيث كيفيّة تحمّلِهِ، وآدابِ نقلِهِ، وطُرُقِهِ من صَحيحها وعليلها، ومَن يحتجُّ به ممن لا يحتجُّ به، وأخبارِ الرواةِ وأحوالِهِم، ونقدِ المتنِ وعَرضِهِ ومقارنتِه مع أحاديثِ الثقاتِ.

فهذا علمٌ عظيمٌ لا يقلُّ أهميةً عن علمِ الرّواية، بل هذا يَسبِرُها ويميّزها وينقّيها، ولقد وضع لنا أئمةُ المدرسةِ العراقيةِ أصولاً وقواعدَ في بيان حالِ الراوي ومروياتِه ضبطاً وتثبتاً، قبولاً وردّاً؛ أخرج الخطيب البغدادي بإسنادِه إلى قتادةَ بنِ دعامة السدوسيّ البصريّ (ت١١٧هـ) قوله: "لا يُحمَلُ هذا الحديثُ عن صالحٍ عن طالحٍ، ولا عن طالحٍ عن صالحٍ، حتَّى يكونَ صالحٌ عن صالحٍ "[(١)].

فكان واجباً بيانُ الراوي الصالح من الطالحِ، حتى يُعرف الراوي عمَّن يأخذ الحديث، فهذا من الدِّينِ؛ قال ابنُ سيرينَ (ت١١٠هـ): " إنَّ هذا العلمَ دينٌ، فانظُروا عمَّن تأخُذونَ دِينَكُم "[(٢)].

من خلالِ ما سبقَ يتبيَّن لنا أنَّ الاهتمامَ بعلمِ الدراية عظيمٌ، وأنَّ أئمةَ مدرسةِ الحديثِ في العراقِ كانوا من أوائلِ من وضعوا القواعدَ العامةَ له، وسأقتصرُ في هذا الإيجازِ بيانَ التأصيلاتِ والقواعدَ في جانب الضبطِ والتثبتِ والنقدِ المتعلقة بسندِ الحديث ومتنهِ.

المطلبُ الأولُ

التحققُ والتَّثبتُ في الرّوايةِ

إنَّ تنبيهَ المسلمينَ على خطورةِ نشرِ الأحاديثِ الضعيفةِ والموضوعةِ، وكذا تحذيرُهم من روايتِها دون بيانِ ضعفِها لأمرٌ مهمٌّ جديرٌ بالعنايةِ والاهتمامِ، وهذا ما يسمى بالتَّحققِ والتَّثبتِ في روايةِ أحاديثِ رسولِ الله ﷺ كي يُتجنَّبُ الكذبُ على رسولِ الله ﷺ.

فالتثبتُ في الرّوايةِ صيانةٌ للشريعةِ من التبديلِ والتَّحريفِ، وأنَّه من الدِّين، والكلامُ والتحذيرُ من ناقلي الحديثِ دون تثبتٍ واجبٌ.

---

(١) الكفاية في علم الرواية: لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) تحقيق: أبو عبدالله السورقي، إبراهيم حمدي المدني. المكتبة العلمية – المدينة المنورة (بلا ت) ص ٢٠.

(٢) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي – بيروت. مقدمة صحيح مسلم. باب في أن الإسناد من الدين ١/ ١٤.

ذكرَ الإمامُ مسلمٌ رحمه الله في مقدمةِ صحيحِهِ باباً فقالَ فيه: " بابُ في أنَّ الإسنادَ من الدِّينِ وأن الرواية لا تكونُ إلا عن الثقاتِ وأنَّ جرحَ الرُّواة بما هو فيهم جائزٌ بل واجبٌ، وأنَّه ليس من الغيبةِ المحرَّمةِ، بل من الذبِّ عن الشريعةِ المكرَّمةِ "[١].

ثم أسندَ قولَ الإمامِ محمد بنِ سيرين البصريِّ رحمه الله حيثُ قالَ: " إنّ هذا العِلمَ دينٌ، فانظُروا عمَّن تأخذونَ دينَكم "[٢].

وقالَ أيضاً: " لَم يكونوا يَسألونَ عن الإسنادِ، فلَمَّا وَقعَتِ الفتنةُ، قالوا: سَمُّوا لنا رجالَكُم، فيُنظَرُ إلى أهلِ السُّنَّة فيُؤخَذُ حديثُهُم، ويُنظَر إلى أهلِ البِدَع فلا يؤخَذُ حديثُهُم "[٣].

هذا كان في أول الأمرِ فابنُ سيرين من كبارِ التابعينَ، وكانَ من أشدِّ الناسِ تثبتاً في قبول الرِّوايةِ، فالتحققُ من ناقلي الحديثِ والآثارِ لا بدَّ منه، وينبغي لحاملي الحديث من توافرِ الشروطِ التي من خلالها يُقبلُ حديثُه، ويُحتجُّ بمروياتِه؛ وإلا فحديثُهُ مردودٌ غيرُ مقبولٍ.

وكذا ما حصل بين عامرٍ الشَّعبيِّ الكوفيِّ (ت١٠٥هـ تقريباً) وبينَ الرَّبيعَ بنِ خُثَيمٍ الكوفيِّ (ت٦١هـ)، وقد حدَّثهُ الرَّبيعُ بحديثٍ، فقالَ الشَّعبيُّ: " فَقلتُ: مَنْ حدَّثَكَ؟ قالَ [الربيعُ]: عَمرُو بنُ مَيمونٍ، وقلتُ: مَن حدَّثَكَ؟ فقالَ: أبو أيُّوبَ صاحِبُ رسولِ اللَّهِ ﷺ. قالَ يحيى بنُ سعيدٍ: وهذا أوَّلُ ما فُتِّشَ عنِ الإسنادِ "[٤].

هكذا نجدُ أنَّ مدرسةَ الحديثِ العراقيةِ قد أصَّلت منذُ الصدرِ الأولِ لهذا الأمر – أعني به: التَّحققُ والتثبتُ في قبولِ الرِّوايةِ – فابنُ سيرينَ من سادات التابعين وقد أدرك ثلاثين من أصحابِ رسولِ الله ﷺ[٥]، وكذا الشعبيُّ الذي سمعَ وحدَّثَ عن أكثر من أربعين صحابياً[٦]، وسارَ على ذلك من بعدِهما العلماءُ والأئمةُ.

وممَّن كان يتثبَّتُ في الرِّوايةِ: أبو العاليةَ رُفيعُ بنُ مهرانَ الرِّياحيُّ البصريُّ (ت٩٠هـ)، حيثُ قالَ: "كنَّا نَسمعُ الرِّوايةَ بالبصرةِ عن أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ فلمْ نَرضَ حتَّى رَكِبنا إلى المدينةِ فَسَمِعْناها من أفواهِهِم "[٧].

---

(١) المصدر السابق: ١/١٤.

(٢) المصدر نفسه: ١/١٤.

(٣) المصدر نفسه: ١/١٥.

(٤) المحدث الفاصل للرامهرمزي: ص ٢٠٨.

(٥) تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ليوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبي الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (ت ٧٤٢هـ) تحقيق: د. بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة – بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٠ – ١٩٨٠م ٢٥/٣٤٨.

(٦) ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٦/ ٢٤٦ وما بعدها

(٧) المصدر نفسه: ٧/٨٠.

" قال يعقوبُ بنُ شيبةَ: قلتُ ليحيى بنِ معين: تعرفُ أحداً من التابعين كان ينتقي الرجالَ كما كان ابنُ سيرين ينتقِيهم؟ فقال – برأسه –: أي لا "[١].

" وقال يعقوبُ: وسمعتُ عليَّ بنَ المدينيَّ يقول: كان ممن ينظرُ في الحديث ويفتشُ عن الإسنادِ، ولا نعرفُ أحداً أولَ منه، محمدُ بنُ سيرين ثم كان أيوبُ وابنُ عون، ثم كان شعبةُ، ثم كان يحيى بنُ سعيدٍ، وعبدُ الرحمن "[٢].

هؤلاء أئمةُ النقدِ من المدرسة الحديثية العراقية في القرنينِ الأوَّلَينِ ذكرهم ابن المديني رحمه الله تعالى حسب طبقاتِهم وتَسلسُلِهم، فابنُ سيرينَ البصريُّ (ت١١٠هـ)، وأيوبُ بنُ كيسان السَّختيانيُّ البصريُّ (ت١٣١هـ)، وعبدُ الله بنُ عونَ بنِ أرطبانَ البصريُّ (ت١٥٠هـ)، وشعبةُ بن الحجاجِ البصريُّ (ت١٦٠هـ)، ويحيى بنُ سعيدٍ القطانُ البصريُّ (ت١٩٨هـ)، وعبدُ الرحمنِ بنُ مهديٍّ البصريُّ (ت١٩٨هـ)؛ فكلُّ طبقة من طبقاتِ المحدثين كان يتقدَّمهم في هذا الشأنِ أحدُ الأعلامِ من العراقِ.

وكانَ أحدُهُم يُراجَعُ إن حدَّثَ بحديثٍ من غيرِ سندٍ وإن كانَ ثقةً حافظاً، فعن مَعمَرِ بنِ راشدٍ البصريّ قال: " وكُنَّا نُجالسُ قتادةَ ونحنُ أحْدَاثٌ فَنَسألُ عنِ السَّندِ فيقولُ مَشيَخَةٌ حَولَهُ: مَهْ إنَّ أبا الخطَّابِ سَنَدٌ. فَيَكْسِرونا عن ذلك "[٣].

وممن اهتم بالتَّثبتِ واشتهر به الإمام شعبةُ بن الحجاج الواسطيُّ البصريُّ الذي قال: "ما أعلَمُ أحدًا فتَّشَ الحديثَ كتَفْتيشي "[٤].

ولم يكن الانتقاءُ والتفتيشُ عن الإسنادِ والتحققُ في الروايةِ منهجُهم فحسب، بل أوجبوا بيان حالِ المحدِّثِ وكشفَ أمره للناسِ كي يتبينَ لهم الراوي الثقةَ من غيرِهِ، ويكادُ يكون هذا الأمرُ أول ما بدأ به أهلُ العراقِ، فعن عاصِمٍ الأحوَلِ، قالَ: " كانَ قتادةُ يُقَصِّرُ بِعَمرِو بنِ عُبَيدٍ فَجثَوتُ على رُكبَتَيَّ، فقلتُ: يا أبا الخطَّابِ، هذه الفقهاءُ ينالُ بعضُها من بعضٍ، فقال: يا أحوَلُ، رجُلٌ ابتَدَعَ بِدعَةً فيُذْكَرُ، خيرٌ من أنْ يُكَفَّ عنهُ "[٥].

ويعتبرُ شعبةُ بنُ الحجَّاجِ من أكثرِ الناس تشدُّداً في ذلكَ، فعن عبدِ الرَّحمنِ بنِ مهديٍّ، قال: " مرَرتُ مع شعبةَ بِرجلٍ – يَعني يُحَدِّثُ – فقالَ: كَذَبَ واللَّهِ، لولا أنَّهُ لا يَحِلُّ لي أن أسكُتَ عنهُ لَسَكَتُّ – أو كلِمةً مَعناها "[٦].

---

(١) شرح علل الترمذي: لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السَلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي (ت٧٩٥هـ) تحقيق: د. همام عبد الرحيم سعيد. مكتبة المنار – الزرقاء — الأردن. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م ص ٣٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٥٥.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٧٢/٧.

(٤) الجامع للخطيب: ٢٩٥/٢.

(٥) الكفاية للخطيب: ص ٤٤.

(٦) المصدر نفسه: ٤٣.

وقال مرةً: " ألا تَعجَبون من هذا المِجنونِ! جَريرُ بنُ حازمٍ وحمَّادُ بنُ زيدٍ أتَياني يسألاني أن أسْكُتَ عنِ الحَسنِ بنِ عُمارَةَ! ولا واللَّهِ لا سَكَتُّ عَنهُ، ثُمَّ لا واللَّهِ لا سَكَتُّ عنهُ "(١).

وبيانُ حالِ الراوي وكشفُ أمرِهِ لا يعدُّ غيبةً كما يعتقدُهُ البعضُ، فعن عفَّان بنِ مُسلمٍ البصريّ (ت٢١٩هـ)، قالَ: كُنَّا عندَ إسماعيلَ بنِ عُلَيَّةَ البصريّ (ت١٩٣هـ)، فَحدَّثَ رجلٌ عن رَجُلٍ – بحديثٍ –، فَقلتُ – أي: عفان–: إنَّ هذا ليسَ بِثَبْتٍ، قالَ: فقالَ الرَّجُلُ: اغْتَبْتَهُ، قالَ إسماعيلُ: " ما اغْتَابَهُ، ولكِنَّهُ حَكَمَ أنَّهُ لَيسَ بِثَبْتٍ (٢).

مما سبقَ يتبينُ أنَّ التحققَ والتثبتَ في الرِّوايةِ من خصائصِ المدرسةِ الحديثيةِ العراقيةِ، وعليها سارَ الأئمةُ من بعدِهم.

وكذا سارَ على ذلكَ مَن جاء بعدهم من الأئمةِ في القرنِ الثالثِ، قالَ ابنُ حِبَّان بعدَ ذكرِ شأنِ يحيى القطان وعبد الرحمنِ بنِ مهديّ: " ثمَّ أخذَ عن هؤلاءِ مسلكَ الحديثِ والاختبارِ وانتقاءِ الرجالِ في الآثارِ، حتى رحلوا في جمعِ السُّننِ إلى الأمصارِ، وفتَّشوا المدنَ والأقطارِ، وأطلقوا على المتروكينَ حتى صاروا أعلامًا يُقتدى بهم في الآثارِ، وأئمةً يُسلكُ مَسلكُهُم في الأخبارِ جماعةٌ، منهم أحمدُ بنُ حنبلٍ ﷺ، ويحيى بنُ معينٍ، وعليُّ بنُ المدينيُّ، وأبو بكرِ بنُ أبي شيبةَ، وإسحاقُ بنُ إبراهيمَ الحنظليُّ، وعبيدُ الله بنُ عمرَ القواريريُّ [البصريُّ]، وزهيرُ بنُ حربٍ أبو خيثمة [نزيلُ بغدادَ] في جماعةٍ من أقرانِهم [أضرابِهم]، إلَّا أنَّ من أورعهم في الدِّينِ وأكثرِهم تفتيشًا على المتروكين وألزَمهم لهذه الصناعةِ على دائمِ الأوقاتِ منهم كان أحمدُ بنُ حنبلٍ ويحيى بنُ معينٍ وعليُّ بنُ المدينيُّ رحمةُ الله عليهم أجمعين "(٣).
فأغلبُهم من أئمةِ المدرسةِ الحديثيةِ العراقية.

---

(١) المحدث الفاصل للرامهرمزي: ص ٣٢١-٣٢٢.

(٢) ينظر: مقدمة صحيح مسلم: باب الكشف عن معايب رواة الحديث ونقلة الأخبار وقول الأئمَّة في ذلك ٢٦/١. بتصرف.

(٣) المجروحين من المحدثين: لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبي حاتم، الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ) تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م ٥١/١-٥٢.

المطلبُ الثَّاني

الضبطُ في التَّلقي والأداءِ

إنَّ الضَّبطَ من أهمِّ شروطِ قبولِ الرِّوايةِ، سواءَ كانَ ضبطَ صدرٍ أو كتابٍ، أو ضبطَ تلقٍ وتحملٍ أو أداءٍ، ويعتبر من شروط الحديثِ الصحيحِ، إذ لا يكونُ الحديثُ صحيحاً إلا من ثقةٍ تامِّ الضبطِ عن مثلِهِ إلى منتهاهُ، مع بقيةِ شروطِ الصحيحِ المعروفةِ. وليس المقصودُ بالضبطِ والإتقانِ عندَ المحدثينَ سعةَ الحفظِ وكثرةِ المرويَّاتِ، وإنما المقصود به التثبُّتُ، وأن لا يروي الرَّاوي إلا ما حفِظَهُ أو من كتابِهِ، وأن يؤديه كما سَمِعه، وأهلُ الضبطِ بهذا المعنى يتفاوتونَ.

وضدُّهُ كثرةُ الغلطِ وسوءُ الحفظِ والمخالفةُ للثقاتِ، وقد بيَّن ذلك الإمامُ الشافعيُّ (ت٢٠٤هـ) حيثُ قال: " ومَن كثُرَ غَلَطُهُ من المحدِّثين ولم يكُن لَه أصلُ كتابٍ صحيحٍ لم نَقبلْ حديثُهُ كما يكونُ مَن أكثرَ الغلطَ في الشَّهادةِ لم نَقبل شهادتُهُ، وأهلُ الحديثِ متباينونَ، فمنهُم: المعروفُ بعلمِ الحديثِ بطلبِهِ وسماعِهِ من الأبِ والعمِّ وذوي الرَّحِم والصَّديقِ وطولِ مجالسةِ أهلِ التَّنازعِ فيه، ومَن كانَ هكذا كانَ مقدَّماً بالحفظِ إن خالَفه مَن يَقصُر عنهُ كانَ أولى أنْ يُقبَلَ حديثُهُ ممَّن خالَفه من أهلِ التَّقصيرِ عنهُ، ويُعتبرُ على أهلِ الحديثِ بأن إذا اشتَرَكوا في الحديثِ عن الرَّجلِ بأنْ يستدلَّ على حفظِ أحدِهِم بموافقةِ أهلِ الحفظِ، وعلى خلافِ حفظِهِ بخلافِ حفظِ أهلِ الحفظِ له، وإذا اختلفت الرِّوايةُ استدلَلنا على المحفوظِ منها والغلطِ بهذا ووجوهٍ سواه تدلُّ على الصدقِ والحفظِ والغلطِ "[(١)].

ويعدُّ سيدُنا عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﷺ شيخُ المدرسةِ العراقيةِ في الكوفةِ من الذين أصَّلوا مسألةَ الضبطِ في التلقي والأداءِ، حيثُ كانَ ممَّن يَتحرَّى في الأداءِ، ويشدِّدُ في الرِّوايةِ ويَزجُرُ تلامذتَهُ عن التَّهاونِ في ضَبطِ الألفاظِ[(٢)].

ومن هنا يتميَّزُ حديثُ الضابطِ من غيرِهِ، وإسنادُهُ يُقدَّمُ على غيرِهِ.

ثمَّ اصطُلحَ بعد ذلكَ بأصحِّ الأسانيدِ، لتمييزِ الحديثِ الأصحِّ من الصحيحِ عندَ التعارضِ، والضابطِ المتقنِ على مَن هو دونَهُ، فنالت المدرسةُ العراقيةُ للحديثِ – وأخص منها مدرستي البصرة والكوفة، كونُ بغدادَ وغيرِها لم تُبنَ بعدُ – النصيبَ الأكبر، ولكثرتِها وكثرةِ شيوخِها وتلاميذِها فإنَّه لا يسعُ المقامُ لإحصائهم وسَردِهِم جميعهم.

قال عليُّ بنُ المدينيُّ (ت٢٣٤هـ) وعمرو بن عليٍّ الفلاسُ البصريُّ (ت٢٤٩هـ): " أصحُّها محمَّدُ بنُ سيرينَ [البصريُّ]، عن عَبِيدةَ [ابنِ عمروٍ السلمانيّ الكوفي (ت قبل ٧٠هـ)]، عن عليٍّ [ابنِ أبي طالبٍ] ﷺ.

---

(١) الرسالة: لمحمد بن إدريس أبي عبد الله الشافعي (ت ٢٠٤هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر. مصر- القاهرة. سنة النشر ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م. ص٣٨٢-٣٨٣.

(٢) تذكرة الحفاظ: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت٧٤٨هـ). دار الكتب العلمية بيروت- لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م ١٦/١.

وعن يحيى بنِ مَعينٍ: أصحُّها الأعمشُ [الكوفيُّ (ت١٤٨هـ)]، عنْ إبراهيمَ [النخعيِّ الكوفيِّ (ت٩٦هـ)] عن عَلْقَمةَ [بنِ قيس النخعيِّ الكوفيِّ (ت٦١هـ)] عن ابن مسعودٍ ﷺ [(١)].

وعن حجَّاجَ بنِ الشَّاعِرِ قالَ: " اجتمعَ أحمدُ بنُ حنبلٍ، ويحيى بن معينٍ، وعليُّ بنُ المدينيِّ في جماعةٍ معهم اجتَمَعوا فذكروا أجوَدَ الأسانيدِ الجيادِ، فقالَ رجلٌ منهم: أجوَدُ الأسانيدِ شُعبةُ [بصريٌّ]، عَنْ قَتَادَةَ [بصريّ]، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ عَامِرٍ أَخِي أُمِّ سَلَمَةَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ.

وقالَ عليُّ بنُ المدينيِّ: أجْوَدُ الأسانيدِ ابنُ عَونٍ [بصريٌّ]، عَنْ مُحَمَّدٍ [ابن سيرين البصري]، عن عَبيدةَ [السلمانيِّ الكوفيِّ]، عن عليٍّ.

وقالَ أبو عبدِ اللَّهِ أحمدُ بنُ حنبلٍ: أجوَدُ الأسانيدِ الزُّهريُّ، عن سالمٍ، عن أبيهِ.

وقالَ يحيى: الأعمشُ [سليمانُ بنُ مهرانَ الكوفيُّ]، عن إبراهِيمَ [النَّخعيِّ الكوفيِّ]، عن علقمةَ [بنِ قيسٍ الكوفيِّ]، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ [بنِ مسعودٍ ﷺ] "[(٢)].

لقد كانَ الاهتمامُ بالضبطِ والإتقانِ أصلاً من أصولِ أربابِ هذهِ المدرسةِ، وسمةً بارزةً فيهم، فعن عفَّانَ بنِ مُسلمٍ قالَ: " سَمعتُ حمَّادَ بنَ سَلَمَةَ يقولُ لأصحابِ الحديثِ: وَيحَكُمْ غَيِّروا. – يَعني: قَيِّدوا واضْبِطوا- "[(٣)].

وكانَ عفَّانُ يَحُضُّ أصحابَ الحديثِ على الضَّبطِ والتَّغييرِ لِيُصَحِّحوا ما أخَذوا عنه مِن الحديثِ[(٤)].

وعندما سألَ عبدُ الرَّحمنِ بنُ مهدِيٍّ شُعبةَ بنَ الحجَّاجِ: " مَنِ الَّذين تتركُ الرِّوايةَ عنهم؟ قالَ: إذا أكثرَ عن المعروفينَ من الرِّوايةِ مالا يُعرَفُ أو أكثَرَ الغلَطَ أو تَمادى في غلَطٍ مُجتَمَعٍ عَليهِ ولَم يَتَّهِمْ نَفسَهُ عندَ اجتماعِهِم على خلافِهِ، أو رجُلٌ متَّهمٌ بكَذبٍ، وسائرُ النَّاسِ فَارْوِ عنهم"[(٥)]. هنا صرَّحَ الإمامُ شعبةُ رحمهُ اللهُ بشرطينِ من شروطِ الرَّاوي الذي يُقبلُ حديثُه، وهما الضَّبطُ والعدالةُ، فكثرةُ الغلطِ والتمادي بهِ ينافي الضَّبطَ، ومَن اتُّهِم بالكذبِ في الحديثِ يعارضُ العدالةَ.

---

(١) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث: لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير (ت٧٧٤هـ) تحقيق: أبي الأشبال أحمد محمد شاكر. عناية: مكتب الأجهوري للبحث العلمي وتحقيق التراث. إشراف: د. علي محمد ونيس، المشرف العلمي لمكتب الأجهوري. دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ ص ٧٥.

(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم: ص ٥٤.

(٣) الجامع للخطيب: ٢٧٧/١.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧٧/١ بتصرف يسير.

(٥) سير أعلام النبلاء: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت٧٤٨هـ) دار الحديث- القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م ٦١٥/٦.

ولم أرَ – حسبَ اطلاعي – مَن سبقَ يحيى بنَ معينٍ في تقسيمِ الضبطِ إلى ضبطِ حفظٍ وكتابٍ، حيثُ قالَ: " هما ثبتان: ثبتُ حفظٍ وثبتُ كتابٍ، وأبو صالحٍ كاتبُ الليثِ ثبتُ كتابٍ"[١].

ولقد كانت لهم اختباراتٌ عظيمةٌ في بيان ضبطِ الرَّاوي؛ ذكرَ الخطيبُ بإسنادِهِ عن أحمدَ ابنِ منصورٍ الرَّماديِّ البغداديِّ (ت٢٦٥هـ)، قالَ: " خرجتُ مع أحمدَ بنِ حنبلٍ، ويحيى بنِ معينٍ إلى عبدِ الرَّزَّاقِ، خادماً لهما، فلمَّا عُدنا إلى الكوفةِ، قالَ يحيى بنُ معينٍ لأحمدَ بنِ حنبلٍ: أُريدُ أختبرَ أبا نُعيمٍ [الفضلَ بنَ دُكينٍ الكوفيَّ (ت٢١٨هـ)]، فقالَ له أحمدُ بنُ حنبلٍ: لا تُريدُ، الرَّجلُ ثقةٌ، فقالَ يحيى بنُ معينٍ: لا بُد لي، فأخذَ ورقةً، فكتبَ فيها ثلاثينَ حديثاً من حديثِ أبي نُعيمٍ، وجعلَ على رأسِ كلِّ عشرةٍ منها حديثاً ليسَ من حديثِهِ، ثمَّ جاءوا إلى أبي نُعيمٍ، فدقُّوا عليه البابَ، فخرجَ، فجلسَ على دكانِ طينٍ حِذاءَ بابِهِ، وأخذَ أحمدَ بنَ حنبلٍ فأجلَسَه عن يمينِهِ، وأخذَ يحيى بنَ معينٍ فأجلَسَه عن يسارِهِ، ثمَّ جلستُ أسفلَ الدكانِ، فأخرجَ يحيى بنَ معينٍ الطَّبقَ، فقرأ عليه عشرةَ أحاديثَ، وأبو نُعيمٌ ساكتٌ، ثمَّ قرأ الحادي عشرَ، فقالَ له أبو نُعيم: ليسَ من حديثي اضربْ عليه، ثمَّ قرأ العشرَ الثاني، وأبو نعيمٍ ساكتٌ، فقرأ الحديثَ الثاني، فقالَ أبو نُعيمٍ: ليسَ من حديثي، فاضربْ عليه، ثمَّ قرأ العشرَ الثالثَ، وقرأ الحديثَ الثالثَ، فتَغيَّرَ أبو نعيمٍ، وانقلبتْ عيناهُ، ثمَّ أقبلَ على يحيى بنِ معينٍ، فقال له: أمَّا هذا، وذِراعُ أحمدَ في يدِهِ، فأورعُ من أنْ يعملَ مثلَ هذا، وأمَّا هذا يريدُني، فأقلَّ من أنْ يفعلَ مثلَ هذا، ولكن هذا من فِعلكَ يا فاعلٌ، ثمَّ أخرجَ رجلَهُ فرفسَ يحيى بنَ معينٍ، فرمى به من الدُّكانِ، وقامَ فدخلَ دارَه، فقالَ أحمدُ ليحيى: ألَمْ أمنَعكَ من الرَّجلِ، وأقُلْ لكَ: إنَّه ثبتٌ، قالَ: وَاللَّه لرفْسَتُهُ إليَّ أحبُّ إليَّ من سَفَري "[٢].

وما حادثةُ اختبارِ الإمامِ البخاريِّ رحمهُ اللهُ عندَ قدومِهِ إلى بغدادَ من قِبلِ علمائِها إلا من هذا النَّوعِ، حيثُ أرادوا اختبارَ حفظِهِ وضبطِهِ، وقد علَّقَ عليها ابنُ حجرٍ العسقلانيُّ فقال: " هنا يُخضَعُ للبُخاريِّ؛ فما العجبُ من ردِّهِ الخَطأ إلى الصَّوابِ فإنَّهُ كانَ حافظًا، بل العجبُ مِن حِفظِه للخطأِ على تَرتيبِ ما ألقَوهُ عليهِ من مرّةٍ واحدةٍ "[٣].

يتبيَّنُ للباحِثِ أنَّ أئمةَ المدرسةِ العراقيةِ لهم قصبُ السَّبقِ في وضعِ الأصولِ لمسألةِ الضَّبطِ في التَّلقي والأداءِ.

---

(١) تهذيب التهذيب: لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند. الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ ٥/٢٦٠.

(٢) تاريخ بغداد للخطيب: ١٤/٣١٥.

(٣) فتح الباري لابن حجر: ١/ ٤٨٦.

الخاتمة وأبرزُ النتائج

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَن لا نبيَّ بعدَهُ، سيدنا محمدٍ ﷺ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين. وبعد:

فهذه خاتمةُ المسكِ للبحثِ أضعها بينَ يدي القارئ الكريمِ، وفيها جملةٌ من النتائجِ والتوصياتِ فأقول:

- لقد كانت مدرسةُ الحديثِ العراقيةِ غنيةٌ بمؤسسيها من الصحابةِ، بل ومن المكثرينَ في الروايةِ كعليِّ بنِ أبي طالبٍ، وعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، وأنسِ بنِ مالكٍ ﷺ وغيرهم، ممن نزلوا البصرة والكوفةَ.
- امتازت المدرسةُ العراقيةُ بالرحلةِ في طلبِ الحديثِ منها وإليها، وتأثيرُ ذلكَ على كثيرٍ من البلدانِ والأمصارِ.
- اشتهرت بالإكثارِ من الروايةِ وجمعِ العلمِ، حتى صار مدارُ أغلبِ الحديثِ عن شيوخِها كالأعمشِ وأبي إسحاق السَّبيعيِّ وأمثالهما.
- كثرةُ الحفاظِ دلالةٌ على تقدمِ المدرسة، وهذا مما امتازت به المدرسةُ العراقيةُ، فكثرةُ الشيوخِ والتلاميذِ كانت واضحةً في البصرةِ والكوفةِ وبغداد.
- اهتمامهم بعلومِ الحديثِ وكثرةِ التصانيف والمؤلفاتِ الحديثيةِ، بل كان لهم السبقُ في ذلكَ، وهم من أوائلِ من صنفوا في السننِ والآثار.
- التحققُ والتثبتُ كانت سمةً عظيمةً جليلةً عندَ أئمةِ المدرسةِ العراقية، فكانت جهودهم جبارةً في هذا الميدانِ، ووضعوا أصولاً وأسساً في ذلك.
- اشتهرت سلسلة الأسانيدِ الصحيحةِ عندَ أئمتهم أكثرُ من غيرِهم، مما يدلُّ على الضبطِ في التلقي والأداءِ.

هذا ما توصل إليه الباحث وهو جهدُ المقل، وأسأل الله أن يبصرنا بعيوبنا ويلهمنا رشدنا،

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبهِ أجمعين.

ثبت المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم

١- الإرشاد في معرفة علماء الحديث: لأبي يعلى الخليلي، خليل بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن الخليل القزويني (ت٤٤٦هـ) تحقيق: د. محمد سعيد عمر إدريس. مكتبة الرشد – الرياض. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٢- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث: لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير (ت٧٧٤هـ) تحقيق: أبي الأشبال أحمد محمد شاكر. عناية: مكتب الأجهوري للبحث العلمي وتحقيق التراث. إشراف: د. علي محمد ونيس، المشرف العلمي لمكتب الأجهوري. دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ.

٣- تاريخ الإسلام ووَفيات المشاهير والأعلام: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف. دار الغرب الإسلامي. الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

٤- تاريخ الأمم والملوك: لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري (ت٣١٠هـ) دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٥- تاريخ الثقات: لأبي الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي (ت٢٦١هـ). دار الباز. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

٦- تاريخ بغداد: لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي – بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٧- تاريخ دمشق: لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت٥٧١هـ) تحقيق: عمرو ابن غرامة العمروي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٨- تذكرة الحفاظ: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت٧٤٨هـ). دار الكتب العلمية بيروت-لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٩- تهذيب التهذيب: لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند. الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ.

١٠- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ليوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبي الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (ت ٧٤٢هـ) تحقيق: د. بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة – بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٠ – ١٩٨٠م.

١١- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) تحقيق: د. محمود الطحان. مكتبة المعارف – الرياض.
١٢- الجرح والتعديل: لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن – الهند / دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة الأولى ١٢٧١هـ - ١٩٥٢م.
١٣- الرحلة في طلب الحديث: لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) تحقيق: نور الدين عتر. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ.
١٤- الرسالة: لمحمد بن إدريس أبي عبد الله الشافعي (ت ٢٠٤هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر. مصر- القاهرة. سنة النشر ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م.
١٥- سير أعلام النبلاء: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت٧٤٨هـ) دار الحديث- القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
١٦- شرح علل الترمذي: لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السَلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي (ت٧٩٥هـ) تحقيق: د. همام عبد الرحيم سعيد. مكتبة المنار - الزرقاء – الأردن. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
١٧- طبقات الحفاظ: لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
١٨- طبقات الحنابلة: لأبي الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (ت٥٢٦هـ) تحقيق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة – بيروت.
١٩- الطبقات الكبرى: لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري البغدادي المعروف بابن سعد (ت٢٣٠هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٢٠- العلل: لعلي بن عبد الله بن جعفر السعدي بالولاء المديني، البصري، أبي الحسن (ت٢٣٤هـ) تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي. المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
٢١- علم الرجال نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع: لأبي ياسر محمد ابن مطر بن عثمان آل مطر الزهراني (ت ١٤٢٧هـ) دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي (ت٨٥٢هـ) رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي. قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب. عليه تعليقات العلامة: عبدالعزيز بن عبد الله بن باز. دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩هـ.

٢٣- فهرسة ابن خير الإشبيلي: لأبي بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة اللمتوني الأموي الإشبيلي (ت٥٧٥هـ) تحقيق: محمد فؤاد منصور. دار الكتب العلمية – بيروت/ لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

٢٤- الكفاية في علم الرواية: لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) تحقيق: أبو عبدالله السورقي، إبراهيم حمدي المدني. المكتبة العلمية – المدينة المنورة (بلا ت).

٢٥- المجروحين من المحدثين: لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبي حاتم، الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ) تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

٢٦- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي: لأبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي (ت٣٦٠هـ) تحقيق: د. محمد عجاج الخطيب. دار الفكر — بيروت. الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

٢٧- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي — بيروت.

٢٨- مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار: لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان ابن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبي حاتم الدارمي البُستي (ت ٣٥٤هـ) حققه ووثقه وعلق عليه: مرزوق على ابراهيم. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع — المنصورة. الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

٢٩- معرفة علوم الحديث: لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه ابن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت٤٠٥هـ) تحقيق: السيد معظم حسين. دار الكتب العلمية — بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.

فهرست المحتويات

ت	الموضوع	رقم الصفحة
١.	**المقدمة**	**١**
٢.	**المبحث الأول: سمات المدرسة في العناية بعلم الرواية**	**٣-١٥**
٣.	تمهيد	٣
٤.	المطلب الأول: الحرص على جمع الحديث	٤-١١
٥.	أولاً: التأكيد على الرحلة في طلب الحديث والاهتمام بها	٤
٦.	ثانياً: المكثرون في الرواية من العلماء	٨
٧.	المطلب الثاني: كثرة الشيوخ والتلاميذ	١١
٨.	المطلب الثالث: التصنيف والتأليف	١٣
٩.	**المبحث الثاني: سمات المدرسة في العناية بعلم الدراية**	**١٦-٢٤**
١٠.	تمهيد	١٦
١١.	المطلب الأول: التحقق والتثبت في الرواية	١٧
١٢.	المطلب الثاني: الضبط في التلقي والأداء	٢١
١٣.	**الخاتمة وأبرز النتائج**	**٢٥**
١٤.	**ثبت المصادر والمراجع**	**٢٦-٢٩**
١٥.	**المحتويات**	**٣٠**